الإنسانية

أيقظ نحيبها كل ذي قلبٍ وارتجف منه القريب. هز صراخها شوارع المدينة. شاركتها النجوم والأقمار أحزانها. ألقت نفسها في أحضان الوسادة التي ابتلعت دموعها الجارية. لم تكن تلك وسادة من قطن بل كانت الأذن المصغية لها المنصفة في رأيها.

إن أخيها الذي تغافل عن حقوقه، و ملأ قلبه السواد نحوها، وزوجته التي تعمدت افتعال المشاكل، حتى أصبحت الفجوة بينهما كالثقب الأسود تبتلع كل جميل، و توأد الحب الأخوي الطاهر.

في تلك الليلة أنهك التعب جسدها والصداع فتك برأسها. لم تستطع النهوض وإتمام عمل البيت. مرضها أتى لصالح زوجة أخيها. لم تترك قولًا إلا قالته فيها، ولا شتيمته إلا وصفت أخته بها. وكثورٍ هائجٍ ذهب إليها مسرعًا، ولم يتركها إلا وقد تورم خدها وظهرها كشبكة العنكبوت.

هي لم تبالي بالألم والدمع والسهر، ولكن تغير حاله، كان مصابها.

قـررت بعدها أن تعـود إلى زوجها، وأن تلتـزم بشروطه من الكبت وعـدم إعطائها حقوقها. الصبر على الضيم أهـون من فقد الكرامة كل يوم في حضن من وليته أمرك، وظننته سندك بعد رحيل والديك.

عندما تفقد المرأة ساعدها يصبح عظمها لينًا سهل الكسر والخضوع.

أخـذت هاتفها وأرسـلت لزوجها أنها سـتكون له مـا يريد، وبكل جبروت قال لها:

تعلمين البيت أين يكون. قبل أن تشرق الشمس كانت على استعداد للمغادرة وكما توقعت لم يأتِ أخيها ليعتذرعلى فعله.

روت بدمعها أرصفة الطريق، وتورمت رجليها وهي تجر حقيبتها بيدين عاريتين وجسد يتضور جوعًا وعقل مملوء خذلان وضيم. تارة تلعن الزمن وتارة تشتم أخيها وزوجها الذي بلاها الزمن بهما، وتتمتم بأحرف نازفة:

أحببتـه حتـى صـار أنـا وزادت عنـده الأنا، أصبـح لعينـي الضياء والسـنا. وقـال إنني المها، وحبـه لي تعدى الكون والفضـا. وها أنا أجر الحقيبة بقلبٍ مكسورٍ يتمنى الردى.

أهذا عهد الرجال في هذا الزمن أم أن الغباء مني تمكن؟!

مرت السـنين وأنجبتُ أحمد ورنا. ظلت حياتي متأرجحة بين الحزن والألم، لكنني كتمتُ حزني. لم أطالب ولم أثور.

كل يوم أتصل لأخي وكم أعلم أنه يحبني، ولكن بعض الزوجات كالثعابين.

وذات يـوم دعوتـه عـلى الغـداء وحضرت معـه زوجته، عـلى المائدة اجتمعنـا وتبادلنـا الحديـث. ضحـك الأطفال وسـعُد قلبي بابتسـامته. تذكـرتُ عندمـا كان والدانا حولنا ونحن نتضارب عـلى فخذ الدجاجة حينـما رأى شـهيتي لها تركها لي. واليوم أنا التي أتـرك له ما يحب. وما إن شبع قال لي سلمت يداكِ وبضحكةٍ ساخرةٍ قالت: له فعلاً سلمت يداكِ!

رأيـت الحزن في عينيـه، ولكنه كالغريـق لا يسـتطيع التنفس. لعب الأطفال معاً بالكرة قذفها أحمد بقوةٍ، وأصاب بنت خاله سارة بخدشٍ بسـيطٍ. صرخت أمها، وعلى الفورعادت للمنـزل بذاك الوجه المتجهم المملـوء غضبًـا وكرهًا، وحرمت على أولادها اللعـب أو حتى الحديث مع أولادي، وأحترقُ أنا وأخي كعادته ضعيف الشخصية.

حاولـت جاهـدة مـلء قلـوب أولادي حبًـا لهـم. لكـن منذ تلك الحادثـة تغيرتُ وتيقنـت أن أخي مات. أخي الذي حمـاني ذات يوم من المطر وألبسني معطفه وأصيب بنزلة برد. أخي الذي قسم لي من لقمته، أخذ ميراثي من بيتنا وحرم عليّ دخوله.

منذ دخولها وهي تغرس فيه وتستلذ بسماع شجارنا.

كبر الأولاد وعوضني الله بجيران كالأخوة، أنسوني فقدي قليلًا.

أحـب أحمـد ابنة الجـيران التـي تصغره بعامـين. وعرفـت ذلك من رسالته لها حيث قال فيها: «غاليتي سعاد وأنتِ السعادة لقلبي، والحب

الذي غزاني وأيقظ ليلي. منذ طفولتنا وأنا لا أرى سواكِ، وقلبي لا يحب غيركِ. تبقى لي عام على الثانوية وسأخطبكِ لحين إكمال جامعتي..» صرخُت: لا لا لا، لن يحدث ذلك لن أكرر خطأ أخي وأزوج ابني من تلك الفتاه المدللة، نحن بسطاء وتلك الطبقة لا تناسبنا.

في اليوم التالي فتحت الموضوع معه، وشرحت له أن الفتاة التي تجد ما ترغب به تتعب كثيرًا. مهما حاولت التظاهر بعكس ذلك والتحمل.

«ابني العزيز أعلم أنك ستلبي لها ما تريده. ولكن هناك أمر يجب أن تعيه، مجرد إحساسها أنك تتعب لأجلها. وقد تُوفق وتفرح، وقد تخيب فيؤثر هذا في نفسك وتشعر بنقصك تجاهها. وكلاكما ستكبتان ولكن ستنفجران ولن يسعكما البيت. شعور الرجل بالنقص تجاه زوجته كفيل بقتله في اليوم مئات المرات. من تربى يا ولدي على الراحة صعب عليه أن يتحمل الجوع مهما صبر».

شعرت أن حديثي أثر فيه وقال: «فهمت وأنا لا أحب أن تراني بعين النقص. مهما كان الحب بيننا في أوجه. فعندما يحال الحب لرحمةٍ وشفقةٍ، فإذن، نلجمه بالزوال. ولا أريد أن أحني رأسي لغيركِ يا قطعة تتوسطني ويا روحًا تسكنني».

اطمئن قلبي وضممته لصدري وقلت: حماك الله يا ولدي.

مرت الأعوام وأكمل ولدي جامعته وقرر الزواج، ثم دعوت أخي وقد كان ذلك. امتلأ قلبي سعادة وبجناحين حلقتُ في كل اتجاه.

انتصف الليل بنا أنا وابنتي، قال أخي: تعالوا معي وسأوصلكم للمنزل.

فرحتُ كثيرًا، وزوجته تتمتم واكفهر وجهها. ورده أثلج صدري أنني أخته، ومن العيب أن تقلني سيارة في حضوره. صعدنا لسيارته أنا وابنتي وعين ولده تلاحق ابنتي، واضطرب قلبي لذلك.

أنجب ابني سريعًا وشاخ زوجي أيضًا، وإنحناؤه زاد ألمي، فنصف وجوده خير من رحيله. زوجي الذي أحب نفسه وكنت له مجرد زوجة على الورق، أدرك أخيرًا أن ليس له سواي بعد أن أمات الحياة بداخلي، وتجرعت معه مرارة العيش، تحملت الضيم؛ لأجل أولادي. فالمرأة ليس لها غير أولادها، ولأجلهم تفني روحها لهم.

الأولاد الصالحون نعمة من الله. هم ملاذنا حينما نكبر، ـ والحمد لله ـ ثمرة صبري أتت واكتملت سعادتي بحفيدي، وكأني ما عشت الحزن يومًا.

أشرقت الشمس وأشرقت معها نسائم الخير، وقرع الباب ابن أخي ومعه هدايا للمولود من أبيه.

أخذت ريم منه الهدايا ثم رحلت.

قال لي الحمد لله أننا بمفردنا أنا أريد أن أن أخبركِ ب ب ب أريد أن أقول أن أن..

هززتُ برأسي وابتسمتُ ثم قلت له: أتحبها؟؟ إحمرَّ وجهه.

وقال: نعم. وأردفتُ قائلةً وأنا موافقة.

لم ينقضِ النهار إلا باتصال من أمه، ولم تترك لي مجالًا للحديث. وقد إنهالت عليَ بسيل من الكلام الجارح، وأننا نلعب بعقل ابنها الذي تراه طفلًا، وهو يبلغ من العمر الثامنة والعشرون عامًا، ثم أغلقت الهاتف.

العلم بالأمور قبل حدوثها يخفف من وقعها، فكلامها لم يزعجني كثيرًا.

بعد ثلاثة أشهر..

اقتربت الاختبارات الجامعية لريم، وهذه أخر سنة لها، وتطبق ما درسته في الطب في بعض المستشفيات.

وذات يوم غاب الدكتور. وكان لابد من إجراء العملية للمريض، وإيقاف نزيفه وكانت ريم متواجدة وأمرها المدير أن تفعل شيئًا، حتى يصل الدكتور، وبثقةٍ أجرت العملية بنجاحٍ باهرٍ وأكمل معها الدكتور عندما حضر.

في اليوم التالي شكرت المريضة هدى الدكتور؛ لإنقاذ حياتها وقال لها: الفضل -بعد الله- يعود للدكتورة الخريجة ريم.

انصدمت من ذلك، وعلمت أن البشر الصالحين هم أرواح وقلوب نقية محبة للخير.

بعد أسبوع ذهبت هدى إلى أخت زوجها حنان، وكان باب البيت مفتوحًا وسمعت صوت أخت زوجها وهي تأن وريم تعالجها.

بـادرت بالحديـث أن الله رزقك بـالأولاد ورزقني بالمـال. وأيقنت مؤخرًا أن المال من الشيطان ومهلكة الإنسان.

أعذريني فقد ظلمتـك كثيرًا وألتمس من قلبك العفو. فأنتِ اسـم على مسمى.

قاطعتهـا ريم وقالـت: أعذريني يا أمي ولتسـمعي، قـولي يا زوجة عمـي إننا أغنياء بأخلاقنا. وأنا أحترمكِ، ولكن أسـلوبك المتعالي زرع بداخـلي فجـوةً وكرهًـا لكِ. كنـتِ تظنين أننا نـود قربكم مـن أجل ما تملكـون وما عند الله هو أبقى. إن أفعالك مـع أمي ومعي أنا من تجريح عـلى حب ابنـك لي كفيل أن يغسـل أي حـب بداخلي، ومـا فعلته كان واجبي. نحن الأطباء من واجبنا أن نسـاعد أي مريض حتى العدو لنا. وهذه الإنسانية التي جردكِ الله منها، هي التي تحركنا. أمي الآن مريضة، أرجوكِ انـصرفي حالًا. قاطعتني أمي وهي تقـول حبيبتي ريم لم أربيكِ عـلى الانتقام، وطـرد الضيوف من بيتنا. وهذه خالتـكِ وواجب عليكِ احترامهـا، وهـي الآن هنا لأنها علمت أنها كانت على خطأ. والإنسـان بطبيعتـه يخطـئ، إذا لم يجد ناصحًا. ولنعذرها فهـي زوجة أخي الوحيد الذي حرمتنا منه شهور.

قالـت لهـا: لا، لا أليـس معكم هنا؟! فقـد تركنا أيضًا منذ شـهور، وكنتُ أحسبه معكم.

آاااه أين أخي؟ أين سيكون رحل الآن؟

ليس لنا أقارب هنا، لكن لدي إحساس أنه في بيت أبونا. ريم تجهزي سنذهب على الفور. وقالت على استحياء وأنا أريد الذهاب.

من حقكِ ذلك ما زلتي زوجة أخي. اتصلت على ابنها كي يقلنا وعلى الفور أتى.

عند وصولنا هرعت إلى البيت ووجدته متكأً، احتضنته وبكينا في حضن بعض قال: أنا أسف وقلت له ما كان لن يتكرر.

أحبك أخي وليس لي سواك بعد الله..

أنت سندي، وقوتي التي لا تضعف، بضعفك أموت أنا.

مسح على شعري وقبل رأسي، ثم قال: نعم الأخت أنتِ، وهبة من الله وهبني إياكِ.

ومن اليوم لن تري ضعفًا، ولن أرى الدمع في عينكِ أبدًا. وكان ينظر لزوجته ثم قالت حنان: أخي العزيز إن هدى اعترفت بخطئها واعتذرت لنا.. قاطعتها هدى بقولها أنا أعتذر منكم جميعًا. ومن اليوم نحن أسرة واحدة، وسنزوج الحبيبين، وستكون بداية أفراحنا الأبدية.

.